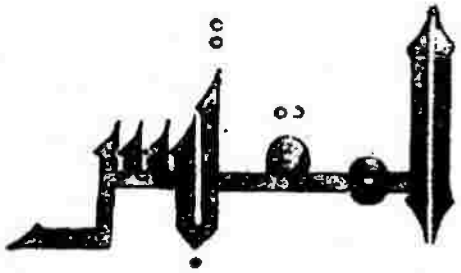

الجزء الحادي عشر من المجلد الثاني

ذي القعدة سنة ١٣٢٥ الموافق دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٧

محاسن الكتب

للجاحظ (١)

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء ازدشير وبناء إصطخر وبناء المدائن والسدير والمدن والحصون . ثم ان العرب شاركت العجم في البنيان وتفردت بالكتب والاخبار والاشعار والآثار فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان . وتصنيف الكتب اشد تقييداً للمآثر على مر الايام والدهور من البنيان لان البناء لا محالة يدرس وتعفى رسومه والكتاب باقٍ يقع من قرن الى قرن ومن امة الى امة فهو ابداً جديد والناظر فيه مستفيد وهو ابلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير . وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشاً في الحجارة وخلقة مركبة في البنيان فربما كان الكتاب هو الباقي وربما كان هو المحفور اذا كان ذلك تاريخاً لامر جسيم او عهداً لامر عظيم او موعظة يرتجى نفعها او احياء شرف يريدون تخليد ذكره كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الابلق الفرد وعلى باب الرها يعمدون الى المواضع المشهورة والاماكن المذكورة فيضعون الخط في ابعد المواضع من الدثور وامنعها من الدروس واجدر ان يراه من مرَّ به ولا ينسى على وجه الدهور .

---

(١) منقولة من كتاب المحاسن والاضداد ومن كتاب الحيوان وقد حذفنا بعض الفقرات المكررة في الثانية فقط

ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولولم يتم ذلك لحرمنا اكثر النفع ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم لقد بخس حظنا منه . واهل العلم والنظر واصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وارباب النحل وورثة الانبياء واعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب الملاهي وكتب اعوان الصلحاء وكتب اصحاب المراء والخصومات وكتب السخفاء وحمية الجاهلية . ومنهم من يفرط في العلم ايام خموله وترك ذكره وحداثة سنه . ولولا اجياد الكتب واحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت الى حب الكتب وانفت من حال الجهل وان يكونوا في غمار الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى ان يكون لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير .

وسمعت محمد بن الجهم يقول : اذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فاجد اهتزازي للفوائد والاريحية التي تعتريني من سرور الاستنباط وعز التبيين اشد ايقاظاً من نهيق الحمار وهدة الهدم فاني اذا استحسنت كتاباً واستجدته ورجوت فائدته لم أوثر عليه عوضاً ولم ابغ به بدلاً فلا ازال انظر فيه ساعة بعد ساعة كما بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قبله . وقال ابن داحة : كان عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم ار اوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا اسلم من الوحدة . واهدى بعض الكتاب الى صديق له دفترا وكتب معه : هديتي اعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد لا تفسدها العواري ولا تخلقها كثرة التقليب وهي انس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدث مطاوع ونديم صدق . وقال بعض الحكماء : الكتب بساتين العلماء . وقال آخر : الكتاب جليس لا مؤونة له . وقال آخر : ذهبت المكاره الا من الكتب .

قال الجاحظ وانا احفظ واقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة والجليس والعمدة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علماً وظرف حشي ظرفاً وانا اشحن مزاحاً إن شئت كان اعجى من باقل وان شئت كان ابلغ من سحبان وائل وان شئت سرتك نوادره وشحك مواعظه ومن لك بواعظ مثله وبناسك فاتك

وناطق اخرس ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني وديم مولد وكيب متمتع ومن لك بشيء يجمع لك الاول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده .

وبعد فما رأيت بستانًا يجمل في روض وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى آمن من الارض واكتم للسر من صاحب السر واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة ولا اعلم جارًا آمن ولا خليطًا انصف ولا رفيقًا اطوع ولا معلمًا اخضع ولا صاحبًا اظهر كفاية وعناية ولا اقل املالاً ولا ابرامًا ولا ابعد عن مراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكف عن قتال من كتاب . ولا اعم بيانًا ولا احسن مواتاة ولا اعجل مكافأة ولا شجرة اطيب عمرًا ولا اطيب ثمرًا ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكًا ولا اوجد في كل ابان من كتاب . ولا اعلم نتاجًا في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب .

ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غبًا وورده خمسًا وان شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يقليك والرفيق الذي لا يملك والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يستبطئك والصاحب الذي لا يريد استجراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي ان نظرت فيه اطال إمتاعك وشحذ ضباعتك وبسط لسانك وجوّد بيانك ونغم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر وهو المعلم ان افتقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وان عزلت لم يدع طاعتك وان هبت ريح اعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقًا منه بادنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء .

وان امثل ما يقطع به الفراغ نهارهم واصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر في كتاب لا يزال فهم فيه ازدياد في تجربة وعقل ومروءة وصون عرض واصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة وابتداء انعام . ولولم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع مافي ذلك من التعرض لحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الردية

وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن في ذلك الا انه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما نشتهيه لقد كان له في ذلك على صاحبه اسبغ النعم واعظم المنة وجملة الكتاب وان كثر ورقه فليس مما يمل لانه وان كان كتاباً واحداً فانه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والاحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير . وقال مصعب بن الزبير : ان الناس يتحدثون باحسن ما يحفظون ويحفظون احسن ما يكتبون ويكتبون احسن ما يسمعون فاذا اخذت العلم فخذه من افواه الرجال فانك لا ترى ولا تسمع الا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً . وقال الزهري : اذا سمعت ادباً فاكتبه ولو في حائط .

قال ذوالرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكتاب احب اليَّ من الحفظ لان الاعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام ولا اعلم جاراً ابرَّ ولا خليطاً انصف ولا رفيقاً اطوع ولا معلماً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا اقل جناية ولا اقل ملالاً وابراماً ولا احفل اخلاقاً ولا اقل خلافاً واجراماً ولا اقل غيبة ولا ابعد من عضيهة ولا اكثر أنجوبة وتصرفاً ولا اقل تصلفاً وتكلفاً ولا ابعد من مراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكف عن قتال من كتاب . ولا اعلم قريناً احسن موافاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر معونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمراً ولا اجمع امراً ولا اطيب ثمرة ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكاً ولا اوجد في كل ابان من كتاب ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع بين التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

والكتاب هو الذي يؤدي الى الناس كتب الدين وحساب الدواوين مع خفة نقله وصغر حجمه صامت ما اسكته وبليغ ما استنطقته ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ويدعوك في اوقات نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه . قال ابو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصيته : يابني لا تقوموا في الاسواق الا على زراد او وراق . وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال : ذهبت المكارم الا من الكتب . وسمعت ابا الحسن اللؤلؤي يقول : غبرت اربعون يوماً ما قلت ولا بت الا والكتاب موضوع على صدري . وذكر المتنبي كتاباً لبعض القدماء فقال : لولا ضنه

وكثرة ورقه لتسخته فقال ابن الجهم : لكني ما رغبني فيه الا الذي زهدك فيه وما قرأت قط كتاباً كبيراً فاخلاني من فائدة وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت .

وقال العتبي ذات يوم لابن الجهم الا تتعجب من فلان نظر في كتاب اقليدس مع جارية سلمويه في يوم واحد وساعة واحدة فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة على انه حر مخير وتلك أمة مقصورة وهو احرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم جارية قال ابن الجهم : قد كنت اظن انه لم يفهم منه شكلاً واحداً واراك تزعم انه قد فرغ من مقالة . قال العتبي : وكيف ظننت به هذا الظن وهو رجل ذو لسان وادب قال : لاني سمعته يقول لابنه : كم انفقت على كتاب كذا قال : انفقت عليه كذا انما رغبني في العلم اني ظننت اني انفق عليه قليلاً واكتسب كثيراً فاما اذا صرت أنفق الكثير وليس في يدي الا المواعيد فاني لا أريد العلم بشيء فالانسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ولا بد ان تكون كتبه اكثر من سماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف حتى يكون الانفاق عليه من ماله الذ من الانفاق من مال عدوه ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب الذ عنده من عشق القيان وانفاق المستهزئين بالبيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً وليس ينتفع بانفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الاعرابي فرسه باللبن على عياله وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الاعرابي في فرسه .

وقال ابراهيم بن السندي مرة : وددت ان الزنادقة لم يكونوا حرصى على المقالات بالورق النقي الابيض وعلى تحلل الحبر الاسود المشرق البراق وعلى اجادة الخط والارغاب لمن يخط فاني لم ار كورق كتبهم ورقاً ولا كالخطوط التي فيها خطا واذا غرمت مالاً عظيماً مع حبي للمال وبغض الغرم كان سخاء النفس بالانفاق على الكتب دليلاً على تعظيم العلم وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكنت اكتب عنه بعضاً وادع بعضاً فقال لي : اكتب كل ما تسمع فان مكان ما تسمع اسود خير من مكان ابيض . وقال الخليل بن احمد : تكثر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ . وقال ابواسحق القليل والكثير للكتب والقليل وحده للصدر وانشد قول ابن بشير .

اما لو أعي كل ما اسمع ... واحفظ من ذاك ما اجمع
ولم استفد خير ما قد جمـ ... ـت الا قليل هو العالة المصقع
ولكن نفسي اذ كرتو ... ع من العلم تسمحه تنزع

فـلا انا احفظ ما قد جمـ . ـت ولا انا من جمعه اشبع
وأحصر بالعي سفي مجلسي وعلمي في الكتب مستودع
فمن بك في علمه هكذا يكن دهره القهقرى يرجع
اذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

وقال ابن اسحق: كلف ابن بشير الكتب ما ليس عليها ان الكتب لا تحيي الموتى ولا تحول الاحمق عاقلاً ولا البليد ذكياً ولكن الطبيعة اذا كان فيها ادنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفي ومن اراد ان يعلم كل شيء ينبغي لاهله ان يداووه فان ذلك انما تصور له بشيء اعتراه فمن كان ذكياً حافظاً فليقصد الى شيئين والى ثلاثة اشياء ولا ينزع الدرس والمطارحة ولا يدع ان يثر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الاصناف فيكون عالماً بالخواص ويكون غير غفل عن سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً الا نسي ما هو اكثر منه فهو من الحفظ من افواه الرجال ابعد. وحدثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدارسه كتاب الاوله ثلاث نسخ. وقال ابو عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد الا اعتقدت انه افضل منه واعقل

وقال ابو عمرو بن العلاء: قيل لنا يوماً ان في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة وهم جلوس على خيرة لهم وعندهم طنبور فتسوّرنا عليهم في جماعة من رجال الحي فاذا فتى جالس في وسط الدار واصحابه حوله واذا هم بيض اللحى واذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر فقال الذي سعى بهم: السوءة في ذلك البيت وان دخلتموه عثرتم عليها فقلت: والله لا اكشف فتى اصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكريا وانشد رجل يونس النحوي.

استودع العلم قرطاساً فضيعه فبئس مستودع العلم القراطيس

قال فقال يونس: قاتله الله ما اشد ضنانته بالعلم واحسن صيانته له ان علمك من روحك ومالك من بدنك فضعه منك بمكان الروح وضع مالك بمكان البدن. وقيل لابن داحة واخرج كتاب ابي الشمقمق واذا هو في جلود كوفية دفلين طائفتين بخط عجيب فقيل له: لقد اضيع من تجود بشعر ابي الشمقمق فقال: لا جرم والله ان العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه ولو استطعت ان اودعه سويداء قلبي او اجعله محفوظاً على ناظري لفعلت ولقد دخلت على اسحاق بن سليمان في امرته فرأيت الدماطين والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ورأيت فرشته وبزته ثم دخلت عليه وهو معزول واذا هو في بيت كتبه

وحواليه الاسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر فما رأيته قط الفم ولا انبل ولا اهيب ولا اجزل منه في ذلك اليوم لانه جمع مع المهابة المحبة ومع الفخامة الحلاوة ومع السؤدد الحكمة . وقال بعضهم : كتب الحكماء وما دوّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والارفاق من القرون السابقة والامم الخالية ومن له بقية ابقى ذكرًا وارفع قدرًا واكثر ردءاً لان الحكمة انفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها واحسن سمتًا في الاحدوثة لمن احب الذكر الجميل والكتب بذلك اولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر لان من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يمحوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك في ايام الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان .

ان من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم ان تحتمل ثقل مؤونتهم في تقويمهم وان تتوخى ارشادهم وان جهلوا فضل ما يسدى اليهم فلن يصان العلم بمثل بذله ولن تستبق النعمة فيه بمثل نشره على ان قراءة الكتب ابلغ في ارشادهم من تلاقيهم اذ كان مع التلاقي يشتد التصنع ويكثر التظالم وتفرط العصبية وتقوى الحمية وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والانقة من الخضوع وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين واذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة امتنعت من التعرف وعميت عن مواضع الدلالة وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية واصابة الحجة لان المتوحد يدرسها والمنفرد يفهم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عدم من له يباهي ومن اجله يغالب .

والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ويرجح قلمه على لسانه بامور منها ان الكتاب يقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الاعصار وتباعد ما بين الامصار وذلك امر مستحيل في واضع الكتاب والمتنازع في المسألة والجواب . ومنافلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ومبلغ صوته وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى اثره ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودوّنت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وادركنا ما لم نكن ندركه الا ببعد المحسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولو لجأنا الى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما ندركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة وعاد الرأي

عقيماً والخاطر فاسداً ولكلّ الحدّ وتبلد . واكثر من كتبهم نفعاً واشرف منها خطراً واحسن موقعاً كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة وما زالت كتب الله تعالى في الالواح والصحف والمحابر والمصاحف وقال الله عز وجلّ : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » . وقال : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . ويقال لاهل التوراة والانجيل اهل الكتاب . وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا فما ينتظر العالم باظهار ما عنده وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه وقد امكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقليد وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم وليس يجد الانسان في كل حين انساناً يدربه ومقوّماً يثقفه والصبر على افهام الريض شديد وصرف النفس عن مغالبة العالم اشد منه . والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيداً وبما يحتاج اليه قائماً وما اكثر من فرط في التعليم ايام خمول ذكره وايام حداثة سنه .

ولولا جياد الكتب وحسنها ومبينها ومختصرها لما تحركت هم هؤلاء لطلب العلم ونزعت الى حب الادب وانفت من حال الجهل وان تكون في غمار الحشو ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة من الجهل وسوء الحال ما عسى ان لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تفقهوا قبل ان تسوّدوا . وقد نجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ولا يحمل قاضياً فما هو الا ان ينظر في كتب ابي حنيفة واشباه ابي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة او سنتين حتى تمر ببابه فتظن انه من بعض العمال وبالحريّ ان لا يمر عليه من الايام الا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الامصار او بلد من البلدان . قال ابن بشير في صفة الكتب في كلة له .

اقبلت اهرب لا آلو مباعدة ... في الارض منهم فلم يحصني الهرب
فقصر اوس فما والت خنادقه ... ولا التواويس فالماخور فالحرب
فايما موئل منها اعتصمت به ... فمن ورائي حثيثاً منهم الطلب
لما رأيت بانني لست معجزهم ... فوتاً ولا هربا قربت احتجب
فسرت في البيت مسروراً به جذلا ... جاراً لبوأة لا شكوى ولا شغب
فرداً يحدثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب
هم مؤنسون وألاف غنيت بهم ... فليس لي في انيس غيرهم ارب

لله من جلساء لا يجالسهم ... ولا يشيرهمو للسوء مرتقب
لا بادرات الاذى يخشى رفيقهم ... ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
ابقوا لنا حكماً تبقى منافعها ... أخرى الليالي على الايام والكتب
فايما آدب منهم مددت يدي ... اليه فهو قريب من يدي كثب
ان شئت من حكم الآثار يرفعها ... الى النبي ثقات خيرة نجب
او شئت من عرب علماً بأولهم ... في الجاهلية ابتني بها العرب
او شئت من سير الاملاك من عجم ... تنبي وتخبر كيف الرأي والادب
حتى كأني قد شاهدت عصرهمو ... وقد مضت دونهم من عمرهم حقب
يا قائلاً قصرت في العلم نهيته ... امسى الى الجهل فيما قال ينتسب
ان الاوائل قد بانوا بما طلبوا ... خلاف قولك ما بانوا ولا ذهبوا
ما مات مثل امرئ ابقى لنا ادباً ... نكون منه اذا ما مات نكتسب

قال الجاحظ : ومما يدل على نفع الكتاب انه لولا الكتاب لم يجز ان يعلم اهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وما يحدث بالكوفة في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فتعلم بها اهل البصرة قبل المساء اه

غدوة الكتب

لله اخوان افادوا مفخراً ... فبوصلهم ووفائهم انكثر
هم ناطقون بغير السنة ترى ... هم فاحصون عن السرائر تضمر
ان ابغ من عرب ومن عجم معاً ... علماً مضى فبه الدفاتر تخبر
حتى كأني شاهد لزمانها ... ولقد مضت من دون ذلك اعصر
خطباء ان ابغ الخطابة يرتقوا ... كفي وكفي للدفاتر منبر
كم قد بلوت بهما الرجال وانما ... عقل الفتى بكتاب علم يسبر
كم قد هزمت به جليساً مبرماً ... لا يستطيع له الهزيمة عسكر

ليس في الدنيا منظر تنصرف اليه الوجوه ولا صورة تحدق فيها العيون ولا نفحة ترتاح اليها الارواح وتخاطبها القلوب ولا صديق اخلص من ذاك الكتاب تودعه سرك فلا يخونك وتبوح اليه بذات نفسك فيحفظ غيبتك و يطرب حضرتك . ليس في صفة البشر مثل هذه